

## حيث تعيش الصقور

ابتدأت المشاعر تعصف بي فأتخيل مغاور من الزمرد والياقوت يسكنها أناس من نور ونار، هناك في أعالي جبل صنين تحت شمرايخ الصخور الناتئة حيث تعيش الصقور والعقبان.

وكان سبب ذلك صعودنا الطارئ الى الضيعة، بعد إقامة جبرية طويلة في بيروت فرضها علينا ذلك الخلاف القديم بين أبي وجدي، نتيجة إقتران أبي بأمي التي كان جدي ولا يزال يعتبرها سوقية من العامية لا تليق بنسبه الكبير. ولكن وسطاء الخير تدخلوا بعد عشرين سنة ونيف من القطيعة، فقوموا ما اعوجّ من الطبائع ولينوا ما صلب من المواقف حتى رضي جدي المشهور في الضيعة بصلاية مواقفه وقسوة قراراته، فحضر الى بيروت وحملنا معه في ذلك الصيف اللاهب في المدينة حيث لا ماء ولا كهرباء.

أعجبت كثيراً بالإلفة الموجودة بين أهالي الضيعة فالجائع يستطيع أن يطلب طعاماً من أي بيت يصادفه دون أي شعور بالخجل، والعطشان يستطيع أن يعرج الى أي منزل ليشرّب الماء والقهوة وتبصّر له ست البيت ويضاحك الفتيات ويمارجهن دون أن يثير ريبة أحداً أو حتى غيرته. تعجبت أيضاً من أماسي الضيعة وكيف يخرج الشبان والصبايا زرافات الى ذلك الطريق الظليل تحت أشجار الصنوبر الباسقة فيهرجون ويمرحون وتدور الأحاديث والقصائد والأزجال فترن الضحكات بالعشرات، وفي بعض الأحيان تعقد حلقات الدبكة على قارعة الطريق إذا صادف أحد الشبان الذين يحسنون العزف على المجوز أو الشبابة.

ولكن الذي أثار خيالي واستفز مشاعري، فجعلني أرق في الليل وأحلم أحلام يقظة متواصلة في النهار حديث جدي عن بعض العائلات الذين يتركون الضيعة طوال الصيف ليعيشوا هناك في أعالي جرود صنين حيث لا زالوا يزرعون القمح والحمص والخضار المتنوعة لتوفر المياه من الينابيع الكثيرة التي يروون عنها الأخبار المدهشة. فاليد تخدر عندما تستقر لحظة في الماء ورأس البطيخ يتشقق

وأقدام الصبية البيضاء تصبح خميرية اللون. والبعض أكد أن اللون الخمرى ينتشر في كل أنحاء الجسد ويعطيك طعم سلافه من مذاق الشفتين.

وقال جدي أن تلك العائلات تأخذ ماشيتها من أبقار وأغنام لأن العشب في الأعلى دائماً أخضر طري، وأما بيوتهم فهي عرازيل من الوزال أو خيم على طريقة الكشاف. الخبر الأكثر إثارة عند جدي عن هذه العائلات خبر حمدان الذي نصب في الأعلى بيتاً من الشعر بخمسة أعمدة وكأنه شيخ قبيلة شمرية. وهو يحرص على دق قهوته بالمهباج وتحضيرها على جمر سنديان متوهج دائماً في منقله الكبير، ومع القهوة يجر على الرباب ويقصد أبياتاً إنتقاها بعناية من تغريبة بني هلال وسيرة عنتره مع سحبات ميجنا وعتابا وبعض المواويل البغدادية. وحمدان هذا كانت جعبته مملوئة دائماً بأخبار الفروسية المدهشة التي تتخللها مأس عاطفية جرت بين رجال صنعوا من نار الغضب وعذارى خلقتهن الطبيعة من زبد أمواج البحار الموشى بأرجوان الغروب الدافئ. وكان لحمدان ابنة إسمها سميرة أخرجها من المدرسة بعد الابتدائية ولكنه علمها القراءة والكتابة بالعربية والفرنسية وحفظها عشرات القصائد والسير، وكانت سميرة رغم قسوة نشأتها قبله أنظار شبان الضيعة لأنها تستطيع أن ترقص في الأعياد والأعراس رقصات فيها تحدّ وشموخ، فكانها أميرة تنظر الى الناس من عل وتزهو بنفسها كالتاوس.

أما عندما تمسك على حاشية الدبكة البعلبكية وتغني الدلعونة، كانت الأرض ترتج تحت ضربات كعبها وقلوب الشبان تزلزل بيت الأضلع من رنات ضحكاتها وتأوهات مواويلها وحوار عينيها المفطورتين على كثير من الغنج والدلال. جمحت بي الإثارة يوماً بعد مشاهدتي لعرس في الضيعة رقصت فيه سميرة حتى رقص معها البشر والحجر، كانت شامخة كما أخبروني وأكثر، في نظراتها تحدّ وفي بسماتها دلال أنثوية طاغية لم أستطع مقارنتها بأي فتاة عرفتها في المدينة، إقتربت منها مرتين محاولاً أن أعرفها بنفسي وأتجادب معها أطراف الحديث ولكنني تجابنت في المرتين فكانت أرتعد ثم أترجع، ربما شعرت هي بذلك حدساً فاقتربت مني في نهاية العرس وسلمت بدلال.

- أهلاً بالقرب الغريب... تتركون الضيعة وكأنها تافهة لا تليق بكم وتصبحون أولاد مدن... هكذا بادررتني وإبتسامة السخرية على شفتيها ولكني تماسكت وأجبتها.

- بلى أتينا الضيعة لنكحل أعيننا بأنوار جمال علوي إفتقدناه كثيراً في المدينة.

- جواب يليق برجل هذبتة الكتب ومعاشرة الفتيات الأجنيات في الجامعة، ثم ضحكت وأدارت عنقها غنجاً حتى كادت جدائها تلامس وجهي فأحسست بالدنيا كلها تدور وعرفت أنني عاشقٌ مولءٌ من النظرة الأولى.

- سألتها إن كانوا سيمكثون قليلاً في الضيعة قبل العودة الى الجرد، فأجابت أنهم سيغادرون قبيل الفجر ثم إبتسمت وقالت:

- سننتظركم في الأعالي، تعالوا إلينا صيادين فعندنا الكثير من الحجل والأرانب وبعض الغزلان أيضاً للصيد الجسور.

أجبت وأنا أتأوه:

- سنزوركم حتماً هذه مسألة محسومة.

- قالوا لي أنك شاعرٌ تحسن مداعبة القوافي فهل هذا صحيح؟

أجبتها بأني أعيش الشعر وإن كنت لا أنشده إلا قليلاً، وتمتمت سميرة وهي تغادر: من يكتب الشعر ولا يعيشه كالحمار الذي يحمل ذهباً ويأكل الشعير. في مساء اليوم التالي قلت لجدي أنني سأزور الجرد وسأحل ضيفاً على حمدان ليومين أو ثلاثة ليعلمني صيد الحجل. وافق جدي فوراً وطلب من الرجل الذي يرعى له كرومه وحقوله أن يعد لي الحصان ويزودني بمؤونة تليق بضيف محترم مثلي من عليّة القوم مع هدية نفيسة لحمدان الذي يحترمه جدي كثيراً لأنه يملك أرزاقاً واسعة في الضيعة أبقاها كروماً عامرةً وجنائن غضة في الوقت الذي أهمل فيه الكثيرون أرزاقهم فبارت ثم باعوها للأغراب وتجار المدينة مراكز عمار بأبخس الأثمان. وصلنا أعالي الجرد قبيل الغروب، كان التعب قد أخذ مني كل مأخذ مع أنني بقيت أكثر الطريق راكباً ومرافقي المسكين يكدح الى جانبي سيراً على الأقدام.

استقبلتنا سميرة وضاحة الجبين طلقة المحيا، وقفت أمامها محملاً لا أدري ماذا تردد شفتاي من عبارات التحية والسلام، كانت تلبس بنظلاً أزرق عرف كيف يكشف بخبث عن إكتناز ردفها دونما شعور بالسمنة، الخصر كان دقيقاً كاد ينقطع أما صدرها فكان ناهداً الى الأعلى بكبرياء وعناد، أنفها دائماً مشربياً الى فوق وفي عينيها وميض برق وقصف رعود. قالت لي وهي تضحك:

- ألا تمد يدك مصافحاً أم ترك أصولياً تكره مصافحة الأنسات؟

عندما مددت يدي لأحتضن راحة يدها برفق وحنان خلت خدراً دافئاً عذباً يسري في بشرتي، نظرت إليها ثانية فإذا بيروق عينيها تتحول الى نور يقطر أنساً وطمانينة وإذا بالرعود تسيل أنهار حنان ناعس، إستردت يدها من يدي ثم دعنا الى بيت الشعر وقدمت لنا القهوة المرة واستأذنت لتنادي على أبيها الذي كان بالجوار يشتم راعيه المهمل الذي أضاع صاعوراً يدعي أن ذنباً إختطفه وولى هارباً.

دخل حمدان بألف أهلاً وسهلاً وعبارات ترحيب لم أسمع بها من قبل، سكب لنا القهوة ثانية ثم نادى على الراعي أن يذبح لنا جدياً ويحضر القسبة والفتائل للقامة سريعة حتى يحين وقت العشاء الذي سيدعو إليه كل الأقارب في الجرد.

إبتدأ المدعوون يحضرون من الساعة السابعة وكلهم قد ارتدى ملابس جميلة لا تبدو عليها مظاهر الفقر، ولفت إنتباهي أن أحد الرجال يحمل عوداً وآخر دربكة وثالث مجوز، فقلت لنفسى إن السهرة ستكون عامرة ودسمة بالأفراح.

بعد أكل المنسف ورفع الأطباق غنى لنا حمدان وهو يجر على الرباب بعض القصيد والمواويل حتى أتى شيخ رعشن وانتزع الرباب من يده وهو يقول: أسكت أنت بضجر شيخوختك ودع الأولاد يغنون ويرقصون.

بدأ دقّ الدربةكة يرافقها العود ونزلت صبية الى الساحة تتلوى كالأفعوان وترقص جدائلها مرة وردفيها مرات ثم تميل الى كل واحد وتغمزه بخبث وتتابع الرقص، فوجئت بالصبية تقبل ثم تتحني فتميل علي برأسها حتى لامس شعرها وجهي ثم تدعوني للرقص والجميع يصرخون أمرين بالإمتثال. أسقط في يدي فنهضت الى

الساحة أخذت أمزج قليلاً من الدبكة الى القليل من الجرك الى رقص بلدي جربته مرتين أو ثلاثة، وكان الجميع يصفقون مستحسنين محاولتي، بعد خجل إستمر بضع لحظات بدأت أشعر بالشجاعة خصوصاً عندما قام رجل في يده كأس عرق وقدمه لي، شربته مقفى وصرخ الجميع مهللين وعاودت الرقص بجرأة أكثر، إقتربت من سميرة حاولت بنظرة خاطفة أن أسكب في عينيها كل ما أملك من عاطفة مخزونة في أعماقي ثم إبتسمت بخبث مددت لها يدي فقفزت كغزال شارد، علا التصفيق والصفير والصراخ وأخذت سميرة تهزّ أردافها بقسوة ثم تدور بسرعة فينفلش شعرها كمروحة صينية ثم تأخذ بيدي لتدور حولي فتقترب وتبتعد لتعود وتجذبني إليها حتى تلاصقنا أكثر من مرة، قلت لنفسي لماذا لا أستفيد من بعض حركات الروك والشارلستون والجرك، كنت ألف ذراعي على خصرها وأدور بها دورة ثم ألوي خصرها على يدي ليتأرجح شعرها بكثير من الغنج والدلال.

أخذ الحماس يدب في الحضور، قامت فتاة بكأس عرق جديد وصاح الشبان مقفى مقفى شربت الكأس مقفى وعلا الصفير، في هذه اللحظة بدأ المجوز يعزف والأيدي تتماسك معلنة نهاية الرقص البلدي وبداية الدبكة البعلبكية.

مسطت سميرة على الحاشية وأخذت تغني الدلعونة، أمسكت بيدها وبذلت أقصى ما عندي من جهد لأبدو خفيفاً بارعاً، كنت كلما أتى الجزر بعد المدّ الحماسي العارم أوزع النكات والتعليقات لأبدو رجلاً وجوده مهمّ وليس شرابة خرج ولكني وفي منتصف الدبكة وفي موجة مدّ متفجرة كان الشرر فيها ينقذح من تحت الأقدام الغاضبة سقطت أرضاً من فرط التعب، سكبوا العرق على وجهي وقمت لأستريح بجانب حمدان الذي بادرنى بفنجان قهوة مليء حتى الحمام.

في الساعة الحادية عشرة كان النسيم الغربي يهب عذباً بارداً وجمر السنديان يتوهج في المنقل، غادر الجميع وذهبت سميرة الى الخيمة المجاورة، إشعل حمدان غليونه وأخذ يعب الدخان بعمق ثم نظر إليّ وقال:

- تقيم في المدينة، شيءٌ كريه، لقد اخترت لنفسك سجنًا من الضوضاء تتمزق فيه أعصابك، إنطلق من عقل المدينة وشكلياتها، لا تجعل من نفسك مومياء أحسنوا

تحنيطها، عش نفسك كما تحسها لا كما تقرأ عنها في الكتب، سر في هذه الجرود وتعرف على الصخور والأشجار وعيون الحساسين، ثم تأوه حمدان وكأنه يحدث نفسه وتابع.

- الحياة، الناس، الآخرون الوضع السياسي والإقتصادي ماذا يعينك من هذا، ألسنت نفسك الحياة، إن الناس الآخرون يعيشون من دونك، أنت لست خبزاً ليحلم بك الجائع، ولا كلباً ليطمئن إليك الراعي، ولا نهداً ليقبر فيك السكارى تأوهاتهم، فلا حاجة لأحد بك.

وأعجبتني فلسفة حمدان ولكني حاولت معارضته فقلت:

- الإنسان حلقة في سلسلة المجتمع وإذا ما ضعفت حلقة وانكسرت إنقطعت السلسلة، فهل تريد أن تلغي إجتماع بني البشر وتشطب الحضارة الإنسانية؟

ومصّ حمدان مصات عميقة من غليونه وقال:

- أتحسب نزوح الناس من الضيع الى المدينة حضارة، إنتقالهم من فلاحين يتعاملون مع الأرض الشريفة الى سماسرة وعمال فنادق وبارات حضارة، بالمناسبة جدك من أكبر ملاكي المنطقة وهو يستعين بالغرباء كي لا تبور أرضه، ألا يخجل أبوك من العمل في بنك تافه هو وزوجته وتعيشون في بيت كالعبة ولا تعودون الى الضيعة أمراء، بيتكم سرايا وجدك على حافة قبره فماذا تنتظرون؟

-ولكن ألا تقسو علينا قليلاً يا عم حمدان؟ هل أنت أيضاً تكره أُمي لأنها غريبة؟

- أنا لا أعرفها، أما والدك فهو بالتأكيد لا يملك رجولة جدك، تنعم في المدينة فسدت طبائعه ولكني أتوسم الخير فيك، إني خبير بالخيل فأعرف الحصان الأصيل من طلته وصهيله، وتنهد حمدان، نظر في جمر المنقل وصمت وعاد ليحشو غليونه، هبّ النسيم رقراقاً فصلح حصان في العتمة وترامى من الخيمة المجاورة صوت سميرة يغني:

قلبي الملكوم سهم البصر  
أبصرت عيناى وهج الدرر

يا حبيبي ذاب قلبي إذا رمى  
ففؤادي فيه عيد كلما

- صوتها عذبٌ دافء فيه شيءٌ من بحة القصب الجريح، أليس كذلك؟

هزّ حمدان رأسه ولم يجب وتابع حشو غليونيه وتابعت سميرة الغناء:

فيه ثغر فاتن إن بسما  
أسمر الحوة معسول اللمي  
ألبس الليل ثياب السحر  
فهو خمر في كؤوس العنبر

تحققت أن سميرة شاعرة وأن الأبيات ثمرة معاناة أحاسيسها فابتسمت ثم تنهدت وأنا أتمتم:

- لولا الشعراء لانقطعت العلاقة بين الله والناس، كم أحب الشعر وكم أحب منشديه.  
إلتفت إلي حمدان وقال:

- هل تعجبك هذه الإبنة الجردية، في نظرتها بريق غضب راعف وفي لفتاتها جموح فرس حرون ولكن صوتها الدافئ يجعلها ناعمة كالمخمل، أحبته بلهجة جازمة:

- منذ رأيتها لأول مرة أحسستها بركاناً انفجر في عتمة عمري الباردة فملاً عمري بروقاً ورعوداً، عندما سلمت عليّ أحسست أنني أحببتها من ألف عام، أيها العم حمدان هل تقبلني قريباً لك؟

ضحك حمدان وهو يقول:

- أن تعانق بركاناً وتسد فوهته بشفتيك شيء جميل، أن تقف تحت شلال من لهب لتستحم بناره الكاوية، أن تروض مهرةً برية فتمتطيها بدون سرج ولجام شيء يليق برجل مثلك، ولكني لو كنت في عمرك لما فكرت بالنساء، تبيع حريرتك من أجل برق خلاب قد يخدعك ولا يسقط مطراً، تلك الرعود قد لا يكون وراءها إلا ضعف العبيد وخنوعهم، المرأة حبر طاحون في العنق، رمز العبودية . وانفعل حمدان وبصق على الأرض.

- ولكن سميرة ليست امرأة، إنها نار الآلهة المقدسة تجسدت في قالب امرأة، ألا تسمع صوت نشيدها الذي يقطع حيناً كحدّ السيف وينساب حيناً كشال حرير.

- أقولها للمرة الأخيرة قبل أن أبارك لكما، يا صديقي حاذر الحسنات إنهن منافقات يكذبن أكثر من رجال السياسة، تقول لك الواحدة أنها متيمة بك حتى الهيمان ثم تجدها لسبب تافه تقفز في وجهك كنمر جريح تمزق قلبك بفجورها.

- لماذا التهرب من الجواب يا عم حمدان قل لي بوضوح أتقبلني قريباً؟

- ليس قبل أن أرى لك جذوراً في تراب ضيعتي.

- تريدني أن أتنازل عن شهادتي الجامعية لأعيش فلاحاً؟

- إذا كنت تملك عقلاً فدعه يثمر هنا أعمال ومشاريع، إصنع مزرعة أبقار نموذجية مشاتل ورد وأشجار مثمرة، مزرعة فطر كروم معلقة، إمتط حصان جدك وتنقف بيني كرم وبستان و صنوبر، هكذا فقط أرضاك صهراً لي.

- وإن كانت سميرة تحب المدينة؟

- يكون جهدي قد ضاع عبثاً وأنا رجل خائب.

ضحكت وضربت على كتف حمدان قائلاً:

- أعطني يدك يا عم حمدان لتباركنا.

- ألا تسمع ثغاءها إنها تناديك.

لا تضيع وقتك مع عجوز أحمق.

كمال يوسف سري الدين

بزبدين ١٢-١-٢٠٠٥